مقابلة الآداب : ٤

توارد الخواطر

بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

من مدة طالت اكثر مما كنا نؤمل ، تكلمنا عن مقابلة الآداب : ماهيتها [١] ، وضرورة درسها في هذا العصر [٢] ، وقد شرعت آداب الامم المختلفة تتجاور اكثر من ذي قبل ، ويؤثر بعضها في بعض على شكل يدفع الى الاطمئنان حيناً ، والى القلق احياناً . اذ نخشى على شخصية ادبنا القومي من الاضمحلال في ذاك المزيج الغريب الذي يأخذ من ادب كل امة بطرف ، فيحور ويبدل ، حتى ينتج ادباً جديداً يكون كلاً للكل ، يتأنس ببعضه الجميع ، ولا يتأنس بجميعه احد . وهو ما يسميه النابهون من نقّاد فرنسة اليوم «بالادب العالمي» ويعنون به دارسين تأثيره في ادبهم الشخصي . ولدرس مقابلة الآداب عمل مفيد في تعيين حدود هذا الادب العالمي ، وتمييزه عن الادب القومي الخاص بامة من الامم ، مع الاشارة الى كل موضوع مشترك بين المفكرين .

الى هذه الغاية رمينا في المقدمات السابقة . وقد اوردنا بعض الامثلة على توارد الخواطر بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب ، حاصرين ذاك التوارد في موضوع «الانسان» وصفاته وخصوصاً عظمته ومسكنته . [٣]

الحياة والموت

ولم تكن حياة هذا المخلوق العجيب ، وعذاباته ، وموته ، لتقلّ عن ماهيته تأثيراً في ادباء الامم المختلفة ، فتناولوها بالبحث ايضاً ، كما تناولوا الانسان ،

١) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٢١-٢٦)
٢) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ١٠٩-١١٥)
٣) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٢٠٠-٢٠٤)

واتفقوا ، عن غير قصد ، في كثير من آرائهم .

وهم لا يشعرون بالحياة الّا اذا كانت مرّة ، ثقيلة الوطأة عليهم ، فيئنون تحت عبئها ، ويتظلّمون ، ويتشكّون . والشعراء يحبّون التشكّي والتذمّر لكل سبب ، ولغير سبب . لأن التشكّي يضرب على وترٍ حسّاس يسلاقي صداه في جميع الافئدة ؛ اذ قلّ من الناس من لم يعاكسه دهره في بعض امانيه . والدهر كلمة مطّاطة المعنى ، غامضة التحديد ، تمثل كل ما في حياتنا من عذاب وشقاء ، يهرب منه الانسان فلا يُفلته ، ويخفض له الجانب فلا يرقّ له ، ويهاجمه بشتائمه ولعناته فيضحك منه مقهقهاً ويمضي في صروفه حتى يحار المرء في حياته ، ويئن من عذابها قائلاً مع من ذكرهم سفر الحكمة :

«إنّ حياتنا شنيّة قصيرة . . . إنما حياتنا ظلٌّ يمضي . . .»(١

على ان هذا القصر كان مدعاةً الى العزاء عند بعض البائسين كما كتبت مدام دي سيڤينيه الى ابن عمها :

« *La vie est courte, mon cher cousin : c'est la consolation des misérables* »(٢

وقال ايوب البارّ :

« ان حياة الانسان على الارض تجنّدٌ وكأيّام أجيرٍ أيّامه . مثل العبد المشتاق الى الظلّ ، والاجير المنتظر أجرَتَه . . . . لا أَلبَثُ ان أَضجعَ في التراب ، فتُبكّر في طلبي فلا أكون . » (٣

اما هذا الظلّ الذي يصبو اليه ويشتاقه ، فما هو سوى ظلّ الموت المريح من متاعب الحياة . وقد تردّدت هذه الصورة في الشعر العالمي من عربي وأجنبي ، تارةً يرافقها بعض التلميح الى اساطير الاقدمين كما في قول رونسار :

Par les ombres myrteux, je prendray mon repos (٤

---

١) سفر الحكمة ٢ : ١ ، ٥

٢) M^me^ de Sévigné, *à de Bussy, le 15 Décembre 1685*

٣) سفر ايوب ٧ : ١ ، ٢ ، ٢١

٤) Ronsard, *Sonnets pour Hélène, II, 42*

وطوراً تتجسَّم فتُصبح جناحاً ، كما جاء في الاوپرا الشهيرة فوست :

O mort ! quand viendras - tu m'abriter sous ton aile ?

وقد جمع الشاعر العربي الظلَّ والجناح فقال :

ورنّقت المنيةُ فهي ظلٌّ على الابطالِ دانيةُ الجناحِ

ذكره الزمخشري في أساس البلاغة معجباً ، وشرحه قائلاً : « فيه بيان جلي ان ترنيق المنية مستعار من ترنيق الطائر (اذا رفرف وخفق بجناحيه) حيث جعل المنية كبعض الطير المرنّقة بان وصفها بوصفه من التظليل ودنوّ الجناح.»

واكثر ما يكون استعمال هذه الاستعارات للموت في الحرب ، حيث يخيّم النقع على المتحاربين ، فيُصبح للحِمام استار وحجب. قال هوميروس واصفاً موت بطل في النشيد السادس عشر من الالياذة :

ومن ثمَّ اغمدَ انفاسه وانهض عينيه ستر المَنونْ (١

ومن صور الموت ايضاً تلك الكأس الدائرة على جميع الناس . وقد رسمها الشعراء والمؤلفون في كل عصر ومكان. واقوالهم اكثر من ان يمكننا ايرادها كلها ، فنكتفي بقول المهلهل :

ما ارجّي في العيش بعد نُداما ي ، أرامُسقوا بكأس تَلاقي (٢

وقول المعرّي:

كأس المنيّة اول بي ، واروح لي من ان اكابدَ إثراءً واحواجا !

وقول المتنبي راثياً جدّته :

احنّ الى الكأس التي شربت بها ، واهوى لثواها التراب وما ضمّا (٣

وقد توسّعوا في الصورة احياناً فجعلوا كأساً لكل ما يصادف الانسان من الخير والشر ، فذكر صاحب المزامير كأساً بيد الله سبحانه . وجعل هوميروس لدى زُفس ، اكبر آلهة اليونان ، قارورتين يسقي منهما العباد واحدة مملوءة

١) سليمان البستاني: الالياذة ، ص ٨٣٩

٢) اطلب الروائع (٣ [المهلهل] ٢٠)

٣) اطلب الروائع (١٢ [المتنبي] ٢)

شرًّا والاخرى خيرًا[1] ، الى غير ذلك مما ورد في الشعر الاجنبي عن كأس الحياة ، وكأس الملذات ، وانه ليتبادر الى الذهن ، عند ذكر الكأس ، بيت عنترة :

لا تسقني كأس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأسَ الحنظلِ

* * *

اما كون الموت يريح الناس فستفاد من ان الحياة كلها تعب وشقاء . وهو موضوع آخر يمكننا تسميته بعالمي . وقد رأيناه في التوراة ، وكذلك ورد في الانجيل ، وتردَّد في القرآن ، واشار اليه هوميروس في النشيد العاشر من الالياذة[2] ولا يتسع المجال لتعداد الشواهد ، فنكتفي بذكر قول ابي العلاء :

تبًّ لكلنا الحياةُ ! فإنا يجبُ إلّا من طامعٍ في ازديادِ!

فلا غرو اذًا ان فتش من رأوها ثقيلة الوطأة ، عن التخلّص منها . وقد يبلغ بهم اليأس الى تمنّي عدم الوجود ، كما فعل ايوب الصديق اذ قال :

« لا كان نهار ولدت فيه ، ولا ليل قيل فيه قد حُبل برجل . ليكن ذلك النهارُ ظلامًا ولا رعاه الله من فوق ولا اشرق عليه نور . . . »

وهو يتوسّع في المعنى توسّعًا رائعًا حتى يصل الى قوله :

« هلّا فاضت روحي عند خروجي من البطن ! لماذا صادفت ركبتين تقبلاني او ثديين يرضعاني ؟ اذًا لكنت الآن أضجع فأسكن ، ولكنت أنام فاستريح . » [3]

وقد جعل هوميروس تمنيات من هذا النوع على لسان هيلانة ، مسببة حرب طروادة ، وذلك في النشيد الثالث من الالياذة[4] ، فقالت :

« . . . كلّ الشرورْ والرزايا الدمُ من اجلي تثورْ
آه لو كانت رحى الريح تدورْ
يوم ببلادي ، وتثارُ الأوارْ للجبال الشمّ بي كالطير طارْ
او أرمى في فوق امواج البحارْ »

---

١) الالياذة : النشيد الرابع والعشرون ، ص : ١١٣١
٢) الالياذة ، ص ٥٩٦
٣) سفر ايوب ٣ : ٣-١٤
٤) ص ٦٦٧

وكذلك ما جاء في القرآن عن لسان مريم :

« ليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيّاً . » (١

وقال احد شعراء الفرس ما ترجمته :

ليت امي لم تضعني ، او اذا وضعتني ليتني لم أُرْضَع (٢

على انه لمّا لم تكن فائدة من هذه التمنيات ، حوّل مبغضو الحياة وجههم شطر حلٍّ آخر وهو الموت ، فطلبوه بكل ما في عواطفهم من قوة تأثير ، وبكل ما في لغاتهم من جمال وفنّ .

قال ابو العلاء :

رقدة الموت ضجعة يستريح الـ جسم فيها ، والعيشُ مثل السُّهادِ !

وقد عبّر عن المعنى نفسه تيوفيل غوتيه بصورة رائعة قال :

Dieu, pour nous reposer dans les déserts du temps,

Comme des oasis, a mis des cimetières;

Couchez-vous et dormez, voyageurs haletants ! (٣

وفي المعنى نفسه ما كتبه سكارون واراد ان يحفر على قبره :

Passant, ne fais icy de bruict !

Garde que ton pas ne l'éveille,

Car voicy la première nuict

Que le pauvre Scarron sommeille ! (٤

وقال برناردن دي سان پيير :

« *Elle (la mort) est la nuit de ce jour inquiet qu'on appelle la vie.* »(٥

---

١) القرآن (١٩ [مريم] ٢٣)

٢) نعريب سليمان البستاني : الالياذة ، ص ٦٦٨

٣) Th. Gautier, *La Caravane.*

٤) Scarron, *son épitaphe par lui - même.*

٥) Bernardin de S^t^ Pierre, *Paul et Virginie*

وظهر الموت لليكونت دي ليل فاستقبله قائلًا ؛ وما اشبهه ببيت المعرّي المذكور اعلاه :

Affranchis - nous du temps, du nombre et de l'espace,
Et rends-nous le repos que la vie a troublé.(١)

وحيّاه لامرتين كما يحيي اعزّ المخلصين فصاح :

Je te salue, ô mort, libérateur céleste,
Tu ne m'apparais point sous cet aspect funeste
Que l'a prêté longtemps l'épouvante ou l'erreur. (٢)

وكذلك هتف اندري شينيه :

Vienne, vienne la mort ! que la mort me délivre !(٣)

وما ذاك الّا لان الموت يُفقد الانسان اوجاعه وآلامه الطويلة مـا طالت الحياة ، كما يقول ابو العلاء :

لعل موتًا يريح الجسمَ من نَصَبٍ ! إن الحيـاة جذا العيش مقترنُ !

وكذلك قوله :

متى غدوت ببطنِ الارض مضطجعًا ، فزّ افتـد اوصـابي واسراني !

وهو يشبه قول جوزف سوران :

Mourir est un instant, vivre est un long supplice.(٤)

وعلى نحو ما تقدّم قول غريته :

La douleur est un siècle et la mort un moment.(٥)

وهنا يجدر بنا القول ان ابا العلاء رأى من فوائد الموت ما لم يرَه غيره ،

---

(١) Leconte de Lisle, *A la mort.*
(٢) Lamartine, 1^es^ *méditations poétiques, V. L'Immortalité.*
(٣) André Chénier, *Dernières poésies, VII.*
(٤) Joseph Saurin, *Beverlei, Acte V, Sc. 5.*
(٥) Gresset, *Épître à ma sœur sur ma convalescence, v.92.*

اذ قال انه يخلصنا حتى من الاهتمام بشؤوننا المادية فنصبح غير محتاجين الى شيء ولا الى احد . وهذا كلامه :

اصبح في لحدي على وحدتي لست الى الدنيا بمحتاج

. . .

العيش افقر منا كلّ ذات غنى والموت اغنى بحقّ كلّ محتاج

. . .

لكونُ خلقك في رمس اعزّ له من ان يكون مليكًا عاقدَ التاج
الملك يحتاج آلافًا تناصره والميت ليس الى خلق بمحتاج

وهو ما عبّر عنه ابو العتاهية بقوله:

ما أكثرَ الفوتَ لمن يموتُ !

* * *

ومما يلفت النظر ان اكثر من يتمنون الموت ، او يستخفّون بقدره ، يعبرون عنه بلفظ «النوم» و«الرقاد» وعن الحياة «بالسهاد» ، كما وردت عند ابي العلاء ، وبرناردن دي سان پيير ، وتيوفيل غوتيه.

وهذا الفرد دي ڤيني اذ يطلب الموت على لسان «موسى» يستعمل التعبير نفسه فيقول مخاطباً الله :

O Seigneur ! j'ai vécu puissant et solitaire.
Laissez - moi m'endormir du sommeil de la terre ![1]

حتى ان ابا العلاء جعل بين الموت والنوم قرابةً ، فقال :

وبين الردى والنوم قربى ونسبةٌ وشأنٍ برى للنفوس وإعلالُ

ولم تخفَ هذه القرابة على الاقدمين ، فقال سقراط ان الموت اخو الرقاد ، وقال مثله فرجيل ، ومثله قول العرب: «الموت اخو النوم» . ومن امثالهم في الرجل اذا مات: «نام نومةً بلا حُلم»

اما هوميروس فقد جعل النوم والموت اخوين في النشيد الرابع عشر من الياذته فقال عن هيرا:

فبها قرّت بعلز البشر اذ لقيت فيها اخا الموت الرقاد

(١) A. de Vigny, *Livre mystique, Moise.*

ولم يكتفِ حتى جعلها ترآمين ، بعد ذلك بنشيدين ، فقال:

لأسرعِ قـادةٍ كلّ العبـاد الى الترآمين : الردى والرُقاد

ولما كان لكل شيء ضدّ ، رأينا غير من تقدّم ذكرهم من الادباء والشعراء يعكسون الاعتبار ، فيجعلون الحياة نوماً والموت يقظةً . قال ابو الحسن التهامي:

العيش نومٌ ، والمنية يقظةٌ والمرء بينهما خيـالٌ سارِ

وما اشبهه بقول لابرويير ! وها هو بحرفه:

« *La vie est un sommeil ; les vieillards sont ceux dont le sommeil a été plus long ; ils ne commencent à se réveiller que quand il faut mourir.* »[1]

ولكل اعتبار وجهه من الصواب كما يتضح للمتأمل . ولكننا نلاحظ ان تصوير الموت باليقظة يكثر خصوصاً في القصائد الرثائية او العاطفية ، التي يطمح فيها الانسان الى التشوّف الى ما وراء هذا الحجاب المسدل على حياتنا الضيّقة ، فيتمتع بالانوار الازلية .

* * *

غير ان الموت ما كان ليُجيب من يدعوه ، او يترك من يُعرض عنه ، اذا لم يشأ ذلك مقدّر الآجال . فهو غاية كلّ حيّ يسير اليها الانسان من نفسه ، وتدفعه نحوها خطواته على الرغم منه ، فكل مولود رهن الفناء ، كما قال ابن سيراخ :

« كل جسد يبلى مثل الثوب لان العهد من البدء انه يموت موتاً » (٢

وكما قال ابو العتاهية :

لدوا للموت ، وابنوا للخراب!

وكما قال غوتيه :

Naître, c'est seulement commencer à mourir.[3]

(١ La Bruyère, *Les Caractères, XI.*

(٢ ابن سيراخ (١٤ : ١٨)

(٣ Th. Gautier, *Poésies, Espana, L'Horloge.*

وكل لحظة من الحياة تقرّبه الى تلك الغاية على نحو قول كورنيل:

Chaque instant de la vie est un pas vers la mort.[1]

فالموت هدف يجري اليه الجميع ، لا فرق بين طويل العمر وقصيره . قال الابيرد الرياحي:

وكل امرئ يوماً سيلقى حِمامه وان نأت الدعوى وطال به العمر

ومثله كثير في اقوال طرفة ، وكعب بن زهير ، والمتنبي ، وابي العتاهية. وليس مناصٌ من ذلك. قال هوميروس في النشيد الخامس عشر:

وهل من سبيلٍ دافعٍ غُصص الردى عن الخلق ، ما استدّت حياةُ الملائكِ!

وقال في النشيد الثاني عشر:

لكنما الموت منه لا مناصَ ، وقد يأتي بأيّ سبيلٍ كان او سببِ

وهو من المعاني المطروقة كثيراً في الشعر العربي. ولعلّ اقرب ما قيل فيه الى بيت هوميروس قولهم:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعدّدت الاسباب والموتُ واحدُ

اذاً فالموت محتّمٌ على جميع الاحياء دون استثناء! فهم لدى هيأته كاوراق الشجر لدى الريح الهوجاء تعصف فتدهورها في الهواء ، وتلقيها جافّة بالية. وذلك قول عديّ بن زيد:

ثم اضحوا كأنهم ورق جَـ ـفّ فألوت به الصَبا والدَبورُ

وقول ربيعة بن مقروم:

واضحت بتياء اجسادُهم يشبّهها من رآها الشيا

وقول يزيد بن الحكيم:

ما عذرُ من هو للمنون وريبها غرضٌ رجيمْ
ويرى القرونَ أمامه هدراً كما هد الهشيم!

(١) Corneille, *Tite et Bérénice*, V. 1.

وقد قال ابن سيراخ في ذلك ، ذاكراً من يولد ايضاً ، متخذاً التشبيه نفسه :

« فكما ان اوراق شجرة كثيفة بعضها يسقط ، وبعضها ينبت ، كذلك جيل اللحم والدم بعضهم يموت وبعضهم يولد . » (١

وهو يكاد يكون اختصاراً لقول هوميروس في النشيد السادس من الالياذة :

فقال : « علامَ اقتصتَ المَبَرْ ونحن كأوراق هذي الشَجَرْ
فبعضاً يبيدُ الهواء ، وبعضُ على منبت بانبتِ النبتِ غضُّ
ففي كل عامٍ نباتٌ أبيدا به الغاب تُنمي ربيعاً جديدا
وكلٌّ على إثرِ كلِّ مشى فجيلٌ تلاشى وجيل نشا ! »

اما ذلك الوقت وتلك الساعة فلا يعلمها احد . وليس في مقدور الانسان ان يؤخر او يقدم اجله ثانيةً واحدة : « فاذا جاء أجلُهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون »(٢ لانه كما يقول ابو العلاء :

لكل نفسٍ من الردى سببٌ لا يومها بعده ولا غدها !

ولا ينجيها من ذلك هرب لان « الموت ، على قول علي بن ابي طالب ، طالبٌ حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب »

ومما اروع قول ابي الطمحان في تصوير ان الموت يدرك الانسان حيث كان لا تمنعه حصون ولا تدفع عنه حرّاس ، قال ذاكراً قصر ريمان المشهور بمناعته في اليمن :

ولو كنت في رَيْمانَ يحرس بابَه أراجيلُ أحوشٍ وأغضفُ آلفُ
اذا لأتتني حيث كنت منيتي يخبّ بها هادٍ الى الموت قائفُ !

ونحن لا نُعدم وجود هذه الصورة في الادب الفرنسي بعد ان نقطع عشرة قرون ، فنستبدل بقصر ريمان قصر اللوفر ، وحرسه برجال الحبش ، فنسمع مالرب يقول ما يترجم تماماً صورة ابي الطمحان :

Le pauvre en sa cabane, où le chaume le couvre,

Est sujet à ses lois ;

---

١) (ابن سيراخ : ١٤ : ١٩)
٢) القرآن (٧ [الاعراف] ٣٤)

Et la garde qui veille aux barrières du Louvre
N'en défend point nos rois.[1]

* * *

اما ما يحدث لدى ذكر الاموات ، بين بني قومهم ، فهو ما تدلنا عليه ايضاً وحدة الطبيعة البشرية الماثلة في جميع العصور والامصار . فان بعض اهلهم من رقيقي القلوب يبكونهم بكاء الخنساء اخويها ، وام عكنور ولدها . اما سائر الاصحاب والمعارف فسرعان ما ينسون موتاهم ، وسرعان ما تجف مآقيهم لطول الغيبة وما ذلك الّا للسبب الذي دفع الفرنسويين الى قول المثل المعروف (*Loin des yeux, loin du cœur*) وكأنه ترجمة حرفية لبيت ابي نواس .

ومن غاب عن العين فقد غاب عن القلب

قال ڤيكتور هوغو في هذا النسيان :

Les morts durent bien peu. laissons - les sous la pierre !
Hélas ! dans le cercueil, ils tombent en poussière
Moins vite qu'en nos cœurs![2]

وقال جيلبر :

Au banquet de la vie, infortuné convive.
J'apparus un jour, et je meurs.
Je meurs, et sur la tombe, où lentement j'arrive,
Nul ne viendra verser un pleur.[3]

وما اشبه القولين بقول ابي العتاهية :

اذا ما انقضت عني من الدهر ليلةٌ فان عزاء الباكيات قليلُ
سيُمرَض عن ذكري ، وتنسى مودتي ويحدثُ بعدي للخليلِ خليلُ !

(١ Malherbe, *Stances à du Perrier.*
(٢ V. Hugo, *Feuilles d'Automne*, 6.
(٣ Gilbert, *Adieux à la vie. Ode IX.*